التصوف في الإسلام نشأته وتطوره

الدكتور ثناء الله الأزهري*

Abstract:

This article relates the Islamic Tasawwuf in the light of islamic references and aimed to know how it has been going through an evolutionary process. The article is puting on this phenomenon in each century of the islamic calender. Starting from the Prophetic era ending in the current period. It also show that Sufi'ism started at sepprate phenomenon and later on it became an indipendent movement. A lot of books have been written on Sufi'ism having its specific terminology.

Key Words:

Refferences, Evolutionary, Process, Phenomenon, Calender, Prophetic, Era, Movement, Terminologies.

في هذا البحث يذكر الباحث مراحل النشأة والتطور للفكر الصوفي الإسلامي عبر أربعة عشر قرنا بالاختصار مشيرا إلى المراحل الخمسة من فجر الإسلام إلى اليوم.

المرحلة الأولى:

التصوف الإسلامي من ظهور الإسلام إلى القرن الرابع للهجرة.

١ـ التصوف الإسلامي ومشابهته بالعلوم الإسلامية الأخرى:

*الاستاذ المساعد، القسم العربي، الجامعة الاسلامية العالمية، اسلام آباد

في الحقيقة إذا أراد أحد منا أن يبحث عن التصوف الإسلامي في عصر صدر الإسلام كعلم بقواعده وأصوله وهيئته وشكله المتعارف عند المسلمين في العصر الحديث فلا يحصل عليه وشأنه في ذلك كسائر العلوم الإسلامية المنبثقة من القرآن الكريم والحديث الشريف مثل التوحيد والفقه وأصول الفقه والحديث والبلاغة والنحو والصرف والمنطق وغير ذلك.

۲۔ كان التصوف الإسلامي عبارة عن الالتزام والتمسك بالكتاب والسنة في أوائل عصوره:

إن التصوف الإسلامي كان في شكل بسيط في أوائل عصور الإسلام و لم يكن يظهر بوسعة الفروع الفكرية والعملية كما نشاهده اليوم حيث أصبح علما مستقلا له أصول و قواعد و أسس و كيان و خصائص و ميزات و منهج و مقومات بين سائر العلوم الإسلامية الأخرى أما بساطته في العصور الأولى عندما نبحث عن أسبابها و عواملها و دوافعها و حالتها فيعلّل ذلك كله الدكتور عبد المنعم خفاجي قائلا:

"إن في هذه الفترة من الزمن كان معظم المسلمين أصحاب دين وتقوى وزهد والإسلام كان على شكل بسيط والمسلمون كذلك حيث لم تكن هناك حاجة إلى أن يكون إسما خاصًا لتمييزهم بعضهم عن بعض وإنما كانت هناك جماعة من أفاضل المسلمين الذين أدركوا صحبة النبي فسمّوا لذلك بالصحابة وكانوا يتشرفون باسم صحابي ثم سمي من جاء بعد هذا الرعيل بالتابعين". (۱)

۳۔ الجمع بين الدين والواجبات الاجتماعية:

نجد في حياتهم صورة لهذه الآية القرآنية: "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ". (۲)

"إنهم كانوا يدبرون أمور معاشهم ويؤدون فرائضهم الدينية والاجتماعية ويحاولون لإيجاد أحوال أحسن وأفضل استقرارا وأمنا في المجتمع الإسلامي والدين الإسلامي كما أشرنا من قبل, قام على أساس الترغيب والترهيب فكما يبشر الصالح بنعيم الجنة كذلك ينذر الطالح بيوم الحساب وعذاب الجحيم

وكان الخوف أهم عامل في حياة المسلم الدينية في القرن الأول، الخوف من المعصية، الخوف من نار جهنم المذكورة بقول الله عزوجل: "وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ"(۳)، وهذه المقدمات تدفع الإنسان قطعا وقهرا إلى التسليم الكامل لإرادة الله عزوجل هذا ما يعد في نظرنا بداية التصوف وتأصيله في النفس وهذه القصة أقدم صور التصوف الإسلامي".(۴)

يظهر من ذلك أن التصوف الإسلامی فی صدر الإسلام كان عبارة عن الالتزام والتمسك بالكتاب والسنة والجمع بين الدين والدنيا.

القرن الثانی:

۴۔ القوة المعنوية العالية والتمسك بقدرة الله تعالى:

"يروى أن الحسن البصرى ومالك بن دينار وشقيقًا البلخى ذهب كلّهم ذات يوم إلى السيدة رابعة المتوفية في السنة الخامسة والثمانين من القرن الثانى للهجرة وكانت مريضة فقال الحسن البصرى: ليس بصادق في دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه فقالت رابعة يشم من هذا الكلام رائحة الأنانية فقال شقيق: ليس بصادق في دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه فقالت رابعة: يجب أن يكون أحسن من هذا، فقال مالك بن دينار: ليس بصادق في دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه، فقالت رابعة بل يجب أن يقال أحسن من هذا فقالوا له تكلمى أنتِ فقالت: ليس بصادق في دعواه من لم ينس الضرب في مشاهدة مولاه وليس ذلك بعجيب لأن نساء مصر لم يشعرن بالألم عند مشاهدة المخلوق فلو كان شخص بهذه الصفة من الاستغراق عند مشاهدة الخالق لم يكن هذا بدعا من الأمر".(۵)

۵۔ التمكين والإلتزام الشديد بعقيدة التوحيد:

إنّ قول السيدة الرابعة صورة رائعة من التمكين وقوة معنوية والتمسك بعقيدة التوحيد كما يدل على أن التصوف فى هذا العهد إنما هو استمرار لحياة زهاد القرن الأول الإسلامى وسلوكهم بطريقة أكثر مبالغة في الزهد والاعتكاف وتحمل المشاق والتوكل والرياضة والقناعة وأمثال ذلك—وإذا دققنا النظر في مجرى حياة الصوفية لهذا العهد وتأملنا أقوالهم رأينا أنه لا يوجد لهم أى كلام عن عناصر العرفان والحقيقة ولا يوجد لهم من الأقوال الأساسية

كالقبض والبسط بأسلوب صريح.

القرن الثالث:

٦۔التوسع والتدقيق والتعميق في المعاني الصوفية:

"أما في القرن الثالث فظهر التصوف في صورة تختلف عما كان عليها في القرن الثانى أى تنظيم التعاليم الدينية التي كان لها وجود بالفعل قبل هذا الشكل من التصوف والتوسع والتدقيق في معانيها وتقعيد وتنظيم رسوم الطريق الصوفى فإننا نلمحهما واضحين في أقوال مشائخ ذلك العصر أينما قرأنا. فإنهم قسموا الطريق إلى سلسلة من المراحل بل ميزوا بين أنواع مختلفة من الطرق يقول يحيى بن معاذ الرازى(٦) المتوفى في السنة الثالثة من الهجرة النبوية على صاحبها الصلوة والسلام: إذا رأيت الرجل يعمل الطيبات فاعلم أن طريقه التقوى، وإذا رأيته يحدّث بآيات الله عزوجل فاعلم أنه على طريق الأبدال، وإذا رأيته يحدّث بآلاء الله عزوجل فاعلم أنه على طريق المحبين، وإذا رأيته عاكفا على ذكر الله عزوجل فاعلم أنه على طريق العارفين".(٧)

نرى فى هذا القول ألفاظا جديدة من الأبدال والمحب والعارف بالله عزوجل التى تشير إلى مقامات العبد فى التقوى عند الله عزوجل.

٧۔نشأة المصطلحات الصوفية في الأدب العربي:

"كان الصوفى الفارسى أبو يزيد البسطامى أول من استعمل كلمة للفناء فى معناها الصوفى الدقيق ومنهم أبو حمزة محمد بن إبراهيم الصوفى البغدادى المتوفى في السنة التاسعة والستين من القرن الثالث للهجرة فقد كان أول من تكلم في اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر وجمع الهمة والمحبة والقرب والأنس والبسط والقبض يقول سهل بن عبد الله التسترى بنيت أصول مذهبنا على ست: التمسك بكتاب الله عزوجل والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل الحلال وعدم ايذاء الخلق وإن آذونا والبعد عما نهى الله عزوجل عنه والتعجيل بالحقوق".(٨)

٨۔التوفيق والتطبيق بين معاني التصوف والمصادر الإسلامية:

نرى أنه لم يستعمل هؤلاء الصوفية في القرن الثالث لغة وحدة الوجود في غير تحفظ بل

جعلوا التوفيق في التصوف وتعاليم الإسلام وعدم تغليب الحقيقة على الشريعة أو يمكن القول إجمالاً بأن صوفية هذا العصر قد اتخذوا القرآن والسنّة ميزانا لجميع ما يخوضون فيه من بحوث نظرية وما يحسونه من حالات وجدانية . وكانت نتيجة ذلك أنهم عنو بوجه خاص بناحية الزهد والعبادة والناحية الأخلاقية في التصوف.

القرن الرابع:

۹۔ نشأة المصطلح الصوفي "وحدة الوجود" وبداية الطرق الصوفية:

" إن شيوع أفكار وحدة الوجود في هذا العصر أفاد أن الهدف الوحيد للصوفية هو " الاتصال بالله عزوجل " ليس إلا ولم يعطوا أهمية لأي أمر آخر غير هذا الغرض السامي وكما أن أثر التصوف كان يبدو بصورة خاصة في الأشخاص أى في حين أن كل فرق التصوف كانت تجمعها أصول مشتركة كما إن الصوفية في هذا القرن سلكوا مسلكا حزبيا وأصبحوا طبقة خاصة أى أصبحت لهم خصوصيات حزبية ومقررات ورسوم وآداب طائفية ودخلت كل طائفة تحت رعاية شيخ ومرشد وقطب وكان الشيخ هو المرشد ذا سلطة كاملة على مريديه يراقب أعمالهم ويحث كل شخص على الطاعة وكانت للأحزاب والفرق المختلفة من الصوفية طرق متنوعة في السير والسلوك ومع أن الصوفية كانوا يهدفون إلى شيء واحد هو الاتصال بالله عزوجل فقد كانت كل طائفة ترى لنفسها طريقا خاصاً للوصول إلى هذا الغرض المشترك وأن وجود الخانقاوات للمرة الأولى كان نتيجة لهذه الأذواق المختلفة في القرن الرابع". (۹)

والخلاصة أن الناحية النظرية للتصوف صارت أكثر أهمية وتغلبت على الناحية العملية في هذا العصر.

۱۰۔ بساطة الشعر الصوفي ووضوحه:

" إن الشعر الصوفى في القرن الرابع كان بسيطا خاليا من التصنع والتكلف وتزويقات القرون التالية له ، وكان قريبا من الفهم سلسا بحيث كان يجعل القارى يتعرف جمال الطبيعة لفرط بساطته أحيانا كما أن الشعر الصوفى في ذلك الوقت كان يتلاءم مع الطبع والفكر ويقرب لإدراك المتكلم بالفارسية وله ذوق سليم لأنه كان خلوا من المعانى المجازية التمثيلية والاستعارات

والكتابات الإشراقية والعرفانية". (۱۰)

هذا يشير إلى أن الشعر الصوفي في القرن الرابع للهجرة لم يكن يصعب على فهم الناس له وإدراك معانيه إلى درجة ما كان في العصور التالية.

المرحلة الثانية:

التصوف الإسلامي من القرن الخامس إلى القرن الثامن للهجرة.

القرن الخامس:

۱۱۔ التصوف الإسلامي شرح معتدل للإسلام:

صوفية القرن الخامس نذكر بعضهم مثل أبي القاسم القشيري المتوفى في السنة الخامسة والستين من القرن الخامس للهجرة العارف المعتدل أي البعيد عن الإفراط والتفريط ومن تعتبر آراؤه وأفكاره في رسالته المسماة بالقشيرية الصادرة في السنة السابعة والثلاثين من القرن الخامس للهجرة مثالا للاعتدال والقصد وحجة الإسلام الغزالي الصوفي المتوفى في السنة الخامسة من القرن السادس هو أحد أهل الظاهر والمتشرعة وكلامه رغم إحاطته العلمية أشبه بمقولات الفقهاء وأصحاب الفتاوى.

"شيخ الإسلام أحمد الجامي أحد صوفية أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الذي كان يرى أن الطريقة هي عبادة عن دفع المذنبين إلى التوبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". (۱۱)

يتضح لنا من هذا أن الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر الذي أمر به الإسلام كان شعارا لصوفية هذا القرن.

"وقد خرج من بغداد خلال هذه الفترة الديوان الشعري الوحيد — فيما نعلم — الذي اقتصر على الشعر الصوفي وهو للحلاج الذي لم يكتف ببعض المقطوعات في الحب والسلوك والمعرفة، كما فعل كثير من الشيوخ، وكان بهذا إرهاصا بما ستزخر به الساحة من شعر صوفي في المرحلة التالية. (۱۲)

۱۲۔ ازدياد الشعر الصوفي وكثرته:

والنقطة التي تسترعي النظر هي أن التصوف والعرفان في القرن الخامس أخذا يزدادان

توسعا وعمقا في الشعر يوما بعد يوم بحيث ظهرت جماعة من الشعراء واستعملوا المعاني التي كانت غير متعارفة في ساحة الأدب الصوفي من قبل.

القرن السادس:

۱۳۔ظهور أعلام التصوف الإسلامي ذو وامكانة عالية في المجتمع:

وكان المتصوفة في هذا القرن موضعا لاحترام أغلب الناس وتكريمهم ومن أبرزهم الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى في السنة الحادية والستين من القرن السادس للهجرة " صاحب أول طريقة منظمة مستمرة حتى اليوم "[۱۳]، والشيخ أحمد الرفاعي المتوفى في السنة الثامنة والسبعين من القرن السادس للهجرة.

۱۴۔التقريب بين المذاهب والصلح العام بين طوائف المسلمين:

ومن سمات التصوف في القرن السادس أن العصبية المذهبية الشائعة آنذاك والحروب والمنازعات والمجادلات التي كانت تدور بين الفرق المختلفة دفعت المفكرين إلى الأخذ بمبادئ السلام وفكرة توحيد المذاهب والصلح العام لمقاومة الخلافات المذهبية ، ومن الواضح أن كبار الصوفية كانوا بعيدين عن تعصب أهل الظاهر وتزمتهم وتشددهم وأن مذهب التصوف منذ أمد بعيد كان قد صار على يد جماعة من أهل الحال مذهبًا للعشق والمحبة وطريقة للسلام والوئام وكانت عقيدة " وحدة الوجود الخاصة بالصوفية غير الفلاسفة والملاحدة " التي تعد أهم موضوعات التصوف والعرفان أكثر استعدادًا لإبراز هذه الأفكار والميول ".[۱۴] هذا يدل على أن التصوف في القرن السادس للهجرة كان يتمثل الفكر الإسلامي المعتدل كما أنه كان يمتاز بسماحة الإسلام والرحمة والمحبة والتآلف بين قلوب الناس لذلك إن الصوفية كانوا موضع الاحترام والتقدير بينهم.

القرن السابع:

۱۵۔نشأة التصوف الفلسفي وعلم العرفان في الدراسات الصوفية:

تصوف القرن السابع امتداد لتصوف القرنين الخامس والسادس الذي بلغ درجة النضج والكمال بظهور كبار العارفين ولا سيما الشيخ محي الدين ابن عربي المتوفى في السنة

الثامنة والثلاثين من القرن السابع للهجرة وجلال الدين الرومى المتوفى في السنة الثانية والسبعين من القرن السابع.

"انطبع التصوف بطابع العلوم والأبحاث الفلسفية وظهر بمظهر آخر في العلوم الدراسية ومعنى ذلك أن التصوف الذي يمكن تسميته علم العرفان أو التصوف الفلسفى قد دخل في حوزة العلوم الرسمية متمشيا مع سائر الدراسات الخاصة بذلك العهد كالفلسفة وعلم الكلام وأحرز لنفسه منزلة بينها وإن كتاب فصوص الحكم لابن عربى وكتب أخرى من مثل لمعات للشيخ العراقى وديوان قصائد بن الفارض ، أصبحت كتب تعليمية منذ أواخر هذا القرن واشتغل جماعة بتعليمها وتدريسها وقد أضاف أفاضل الصوفية شروحا وتعليقا عليها". (۱۵)

هذا دليل على أن التصوف فى هذا القرن أصبح علما مستقلا لفهم النظام الروحى الإسلامى كما أن الفكر الصوفي برز في الساحة العلمية والأدبية في الشعر والنثر وأثّرت هذه الدراسات الصوفية في حياة المسلمين والمناهج الدراسية والعلماء والصلحاء وأصحاب الفكر الروحي للإسلام.

القرن الثامن:

۱۶ ـ تعليم آداب النظام الإسلامي الصوفي الروحي:

الشيخ محمد بهاء الدين النقشبندى هو أحد أعلام الصوفية الأفذاذ المتربعين على قمة الوصول فى القرن الثامن الهجرى وكان مولده في شهر المحرم فى السنة السابعة عشر من القرن الثامن للهجرة. (۱۶)

يقول الشيخ بهاء الدين: "الطريق إلى الله عزوجل له ثلاثة آداب ، أدب مع الله عزوجل وهو أن يكون المريد في الظاهر والباطن مستكملا للعبودية بامتثال الأوامر واجتناب النواهى معرضا عن سواه بالكلية ، وأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أن يستغرق في مقام " فاتبعونى (۱۷)"، ويراعى ذلك في جميع الأحوال وجوبًا وأدب مع المشائخ وهو لازم للطالبين لأنهم سبب في متابعته (۱۸)".

۱۷۔الدعوة إلى التحلّي بالأخلاق العالية والسّفر لها.

ففي ضوء ما سبق ذكره من قول الشيخ محمد بهاء الدين نلاحظ أن التصوف الإسلامى كان يدعو إلى التحلى بأخلاق إسلامية فى هذا القرن كما أن التصوف ينمو قرنا بعد آخر ويقع الفرق بين كل حقبة وأخرى والصوفية كانوا يرحلون من بلد إلى بلد آخر ليتلقوا العلم وآداب السلوك الروحى وكانوا يصحبون الصوفية الكبار والأساتذة لمدة طويلة لتهذيب نفوسهم وتزكية أرواحهم عن طريق العبادة والرياضة الدينية والتقوى والورع وهدفهم الأول والأخير كان الوصول إلى رضاء الله عزوجل للفوز والفلاح في الدارين كما أرشدنا ديننا الحنيف أن نطلب فيما نفعل من خير، القبول عند الله عزوجل.

المرحلة الثالثة:

التصوف الإسلامى من القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر للهجرة

القرن التاسع:

۱۸۔قبول عام للفكر الصوفي على المستوى الشعبي:

بعدما تصفحنا أوراق التاريخ اطلعنا على أن صوفية القرن التاسع كانوا يحظون بمنزلة رفيعة ومرتبة سامية في المجتمع على المستوى الشعبى والمستوى القيادى معا أما المستوى الشعبى فمعروف أن الصوفية يحبون الفقراء ويفرحون بخدمتهم وكذلك اصطحابهم في الطريق إلى الله عزوجل يتبادلون معهم الحب والمودة بحضور حلقاتهم العلمية الدينية في جميع العصور من التاريخ الإسلامى.

۱۹۔احترام التصوف على المستوى الملكى:

أما المستوى الملكى واحترام الصوفية في القرن التاسع فتوضح لنا العبارة التالية عن الصوفى الكبير الشيخ سلطان محمد الحنفى المصرى المتوفى فى السنة السابعة والأربعين من القرن التاسع للهجرة.

"والله ما سمعنا ولا رأينا فيما حويناه من كتبنا وكتب غيرنا ولا فيما اطلعنا عليه من أخبار الشيوخ والعباد والأستاذين بعد الصحابة إلى يومنا هذا أن أحدا اعطى من

العز والرفعة والكلمة النافذة والشفاعة المقبوله عند الملوك والأمراء وأرباب الدولة والوزراء عند من يعرفه ومن لا يعرفه مثلما أعطى الشيخ شمس الدين الحنفي وأبلغ من ذلك أنه لو طلب السلطان برقوق أن ينزل إليه خاضعا حتى يجلس بين يديه ويقبل يديه لكان ذلك اليوم أحب الأيام إلى السلطان فرج بن برقوق". (۱۹)

۲۰۔ منزلة الصوفية العلمية الكبيرة:

وفيما يتعلق بمنزلتهم العلمية في هذا القرن يظهر لنا أن الصوفية في هذه الفترة من الزمن كانوا على أعلى مستوى علمي حيث يقول الشيخ جلال الدين البلقيني.

"لقد حضر يوما مجلس الصوفي الكبير السلطان محمد الحنفي وسمع تفسير الشيخ للقرآن الكريم فقال والله طالعت أربعين تفسيرا للقرآن الكريم ما رأيت فيها من هذه الفوائد التي ذكرها الشيخ محمد الحنفي –رحمه الله–. (۲۰)

القرن العاشر:

۲۱۔ جهود جبّارة وخدمات متميّزة في سبيل نشر الدين:

التصوف في هذا القرن كان معروفا ببروز شخصيات علمية بالغة على أرقى مستوى من الوعي الديني والطريق الروحي حيث أدّت دورا هاما في المجتمع الإسلامي في سبيل خدمة العلم والدين وتربية أفراده وإن كانوا يتحملون المشقة والصعوبات في تأدية هذه الرسالة السامية ولكنهم استمروا بكل عزم وإرادة لاستكمال المسيرة الإصلاحية الروحية الإسلامية ابتغاء وجه الله عزوجل وتركوا لنا ثروة علمية هائلة وقدوة حسنة لكي نستفيد منها في تنوير قلوبنا وأرواحنا وتحديد مصيرنا العلمي والعملي في هذه الدنيا.

۲۲۔ شخصيات التصوف الموسوعية:

منهم الإمام السيوطي المتوفى في السنة الحادية عشر من القرن العاشر والشيخ الشعراني المتوفى في السنة الثالثة والسبعين من القرن العاشر يذكر صاحب المناقب الكبرى:

"إن مؤلفات الإمام الشعراني جاوزت ثلاثمائة كتاب في مختلف العلوم من تفسير وحديث وطب ولغة وتصوف وفقه في مختلف المذاهب وبعض هذه

المؤلفات يقع في خمسة مجلدات ومن أشهر مؤلفاته الطبقات الكبرى ، والميزان في الفقه المقارن، واليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر ولوامع الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية ولطائف المنن وإلى غير ذلك". (۲۱)

۲۳۔ التأكيد على العمل بالأسس والدعائم القوية للتصوف:

كان التصوف يمثل الجانب الأعم في شخصيته التي تبرز لنا أن التصوف في هذا القرن كان قائمًا على أسس و دعائم قوية من العمل بالشريعة المحمدية على من جاء بها الصلوات والسلام والتخلق بها وهذا بالطبع يستلزم الإحاطة الدقيقة بالعلوم الشرعية والإلمام بأصولها وفروعها حتى يمكن أن تطبق سلوكا عمليا ومن ثم تفضى العبادة بالعابد إلى المعبود سبحانه وتعالى وهذا حقيقة التصوف الإسلامى.

القرن الحادى عشر:

۲۴۔ دور الصوفية في الفتوح العسكرية:

"هيأ الله عز وجل للأمة الإسلامية فى هذه الفترة الحرجة رجالا من رجاله، خارج مصر والمنطقة العربية كهؤلاء الذين كانوا حول محمد الفاتح عند دخول القسطنطينية، وكان لهم تأثير بالغ عليه وعلى قادته من الناحية الروحية". (۲۲)

۲۵۔ دور الصوفية في القضاء على الفتن والمحن التي واجهها الإسلام:

"أما الديار الهندية فكانت تعانى فتنة قاسية، إذ ابتليت بأحد رجال الأسرة المغولية فى الهند، وهو السلطان أكبر المتوفى فى السنة الخامسة من القرن السابع عشر للميلاد، الذى حاول إقامة دين جديد لرعاياه، يمزج بين الإسلام والمسيحية والهندوكية، وانتهى بهم الأمر إلى عبادة الامبراطور، والسجود له هاتفين "الله أكبر" وأعانه على ذلك طوائف من المنافقين سياسيين كانوا أو علماء رسميين، لكن الله عز وجل حمى عقائد المسلمين بالهند، بجهود رجل من رجاله هو الشيخ أحمد الـ ـ هندى النقشبندى المتوفى فى السنة الرابعة والثلاثين من القرن الحادى عشر المعروف بمجدد الألف الثانى فقد استطاع أن يقنع الامبراطور بإلغاء كثير من البدع التى استحدثها أبوه أكبر فأصدر بعد قليل أمرا ملكيا نص فيه على ما يأتى:

۱۔ تحريم السجود للملك.

۲۔ إباحة ذبح البقر وأكل لحمه.

۳۔ إعادة بناء المساجد المهدمة.

۴۔ إبطال القوانين المعارضة للشريعة الإسلامية.

۵۔ تعيين القضاة والمحتسبين في مختلف المدن الهندية.

وبذلك آتت حركة الشيخ أحمد التجديدية أكلها، وعاد للمجتمع الإسلامي في الهند اطمئنانه، وانتهت حركة الاضطهاد لعلماء السنة، بدأ المسلمون يحسون الحرية التامة في القيام بشعائر دينهم". (۲۳)

هكذا دافع أحد من الصوفية المحققين عن الإسلام عقيدة و شريعة في حقبة حرجة من الزمن في القرن الحادي عشر كما أن هذا الدفاع المفعم بالقوة و الحيوية والغيرة الدينية أدى إلى يقظة و نهضة إسلامية كبرى في الهند و كثير من البلاد الإسلامية حيث إن تلاميذ الشيخ كانوا منتشرين فيها.

القرن الثاني عشر:

۲۶۔ الاحتفاظ و التمسك بالسمات الإسلامية و ميزاتها:

من أحد أعلام الصوفية المحققين الذين عاشوا في القرن الثاني عشر للهجرة هو الشيخ علي البيومي المتوفى في السنة الثالثة و الثمانين من القرن الثاني عشر للهجرة.

"قد نشأ الشيخ على نشأة دينية وتربى تربية إسلامية محضة حفظ القرآن الكريم وبادر إلى التفقه في الدين فخالط مجالس الشيوخ والعلماء ونهل على أيديهم من فيض علوم الشريعة فتفقه على مذهب الإمام الشافعي – رحمه الله – وتلقى علوم التفسير والحديث واللغة وغيرها على أفاضل علماء عصره وقد ذكر الجبرتي في تاريخه أن الشيخ البيومي قد أخذ الحديث والمسلسلات عن الشيخ عمر بن عبد السلام التطواني كما تلقى عن نخبة من أشياخ عصره". (۲۴)

نلاحظ أن التصوف في هذا القرن لم يغير وضعه مما كان عليه في القرون السابقة وظل محتفظا بميزاته وسماته الإسلامية الجميلة التي تجذب الناس إليها مقدما لهم منهلا علميا وروحيا تستقي منه عقولهم وأرواحهم.

المرحلة الرابعة:

التصوف الإسلامی من القرن الثالث عشر إلى القرن الرابع عشر للهجرة

القرن الثالث عشر:

۲۷۔ المساهمة الفعّالة في تطهير المجتمع من الدنس المادي وإصلاحه:

نجد ملامح التصوف في القرن الثالث عشر من خلال كتابات شخصية فذة صوفية ذات مكانة عالية في أوساط الصوفية والتصوف أعني الإمام السيد محمد ماضی ابو العزائم المتوفى فی السنة السادسة والثمانين من القرن الثالث عشر يقول:

"إن الصوفی الذي نهج منهج التصوف علمًا ومسلكًا، وعمل بكتاب الله وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومعلوم أن الأشياء كلها لها ظاهر وباطن وهو لبها فكذلك الدنيا والآخرة وللدنيا أبناء وللآخرة أبناء فأبناء الدنيا شغلوا بما تقتضيه حظوظهم وشهواتهم وأهواؤهم وما يدعوهم إليه الحس والجسم فرضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والصوفی عرف حذر الدنيا بالتعليم وتحقق زوالها بالتفكير أيقن أن بعدها دار هي الدار حقا ولا يسعد فيها إلا من تخلى عن دنس فكر الأجسام والصوفی على قدر الدنيا والآخرة فقدم ما يبقى على ما يفنى وباع ما يزول بما يدوم وتمنى أن يكون نفسه الثانی فی الآخرة في رمسه شوقا إلى جوار حبيبه المختار والأنس بالصفوة الأطهار" فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (۲۵)"، رجع بكليته إلى الماضی مسارعا إلى ما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العقيدة والعبادة والأحوال النبوية والأخلاق الربانية ومعاملتهم لله تعالى في خلقه". (۲۶)

يلاحظ فی هذا القول أن الصوفية المحققين فی القرن الثالث عشر كانوا على علم دقيق و معرفة عميقة من العلوم الإسلامية كما أنهم كانوا يساهمون مساهمة كبيرة فی نشرها والدعوة إلى التمسك بالقرآن والسنة.

القرن الرابع عشر:

۲۸۔ إحياء الشعور بالرسالة السماوية والتوجيه إلى العمل بها:

يقول د/ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق وأحد أعلام الصوفية فى عصره المتوفى في السنة الثامنة والسبعين من القرن العشرين:

"إن معالم الإيمان وسمات التدين والفكرة الصحيحة عن الهدف الذي من أجله خلق الإنسان والمنطق السليم بين الله عزوجل والعالم إن كل ذلك يكاد في العصر الحاضر – يندرس ويتلاشى وإنه لمن المؤكد أن الأغلبية العظمى من الناس الآن يسيرون في الحياة دون شعور واضح برسالة السماء وتوجيهها وهديها وإنهم بذلك لفى خسر وإنهم لذلك الأشقياء ومع أن رسالة السماء لا تعقيد فيها ومع أن هدى الله عزوجل سهل واضح". (۲۷)

۲۹۔ تقريب المجتمعات الإسلامية إلى معرفة العلاقة بين الله تعالى والإنسان:

يقدم لنا الدكتور عبد الحليم محمود فى هذه السطور صورة حالة المسلمين من ناحية العقيدة الإسلامية والالتزام بها حيث إنهم بعيدون عن هذا المنهج السليم السوى للحياة.

ويقول الدكتور في تفسير "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ". (۲۸)

"والإسلام يريد بذلك أن تكون حياة الإنسان في جميع اتجاهاتها وفي جميع جوانبها وزواياها حياة الإنسان أسسا وبواعث وحياة الإنسان وسائل ومناهج وحياة الإنسان أهدافا وغايات يريد الإسلام أن يكون كل ذلك عبادة وليس ذلك بالأمر المستحيل فالعمل الواحد يعمله شخص من الأشخاص فيكون عملا دنيويا ويعمله شخص آخر فيكون العمل ديننا بل العمل الواحد يعمله الشخص الواحد في وقت ما فيكون دنيويا ويعمله هو نفسه في وقت آخر فيكون عبادة وكل ذلك إنما هو بحسب النية يقول صلوات الله وسلامه عليه "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه(۲۹)"، فإذا ما أراد الإنسان بعمله وجه الله ﷻ كان العمل عبادة مهما أغرق في الصورة الدنيوية وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الجانب كثيرة بيد أن العبادة من ناحية قيمتها الروحية درجات لا تحصى إنها قد تكون شكلا من الأشكال مجرد شكل لا قيمة لها ولا وزن في مقاييس الروح وموازينها وقد

تسمو وتسمو فتصل إلى "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك (۳۰)"
، ولقد كان الرسول ﷺ المثل الأعلى لنا في أن نعبد الله كأننا نراه". (۳۱)

هذه صورة عملية متكاملة لعقيدة التوحيد عند أحد من أعلام الصوفية في القرن الرابع عشر كما أنه مثال رائع للنظام الروحي الإسلامي وهدفه وغايته المنشودة.

المرحلة الخامسة:

التصوف الإسلامي اليوم:

۳۰۔ تجديد التصوف الإسلامي ونهضته الفكرية والعملية:

" إن التصوف وإن غلب عليه التقليد، وساده الجمود أو الخمول، قد أخذ يتحرك من الناحية الفكرية، وإن لم يظهر بعد من الشعراء والمفكرين والمرشدين مثل من شهدتهم المراحل الأولى من حياته، ويرجع هذا التحرك إلى عوامل منها: إسهام بعض المفكرين الكبار، كمحمد إقبال، في إحياء حقائق التصوف وعرضها في سياق الفكر المعاصر ومشكلاته، من أبرز أعماله في هذا الصدد "جاويدنامه" بالإضافة إلى بحوثه في "تجديد الفكر الديني". ولعل إقبالا هو أكثر مفكرينا المعاصرين استيعابا للفكر الصوفي، وخاصة عند جلال الدين الرومي – رحمهما الله – والدور الذي لعبه كثير من المستشرقين الذين أعجبوا بالتصوف الإسلامي ونشروا أصوله القديمة، وترجموا بعضها إلى لغاتهم مثل نيكلسون وماسينيون، رويتر، وآسين بلاسيوس، وكوربان، براون وآربرى وغيرهم وجهود أساتذة عرب كرام، ومسلمين من مختلف الأقطار، لا يمكننا إحصاء أسمائهم، في نشر التراث الصوفي ودراسته، وتوجيه العناية إليه، والحث على إحيائه، ونقده من أمثال عبد الحليم محمود، وأبى العلا العفيفى، ومحمد مصطفى حلمى في مصر على سبيل المثال لا على سبيل الحصر".

۳۱۔ صحوة إسلامية كبيرة بين صفوف الصوفية في العصر الحاضر:

هذا يشير إلى أن التصوف الإسلامي اليوم يمر بمرحلة التطور والتجديد كما نلاحظ أن هناك صحوة كبيرة في مجال التصوف علميا وعمليا و ذلك ليس في صفوف المسلمين

فحسب بل امتدت دائرة تأثير التصوف الإسلامي إلى أقطار غير إسلامية.

هكذا حاول الباحث محاولة متواضعة أن يقدم إلى القارىء الكريم مراحل النشأة والتطور والتجديد للتصوف الإسلامي عبر أربعة عشر قرنا وأرجو أن أكون قد وفقت في هذا التقديم والإفادة به. وبالله التوفيق.

♦♦♦

مصادر

۱۔ الخفاجی، عبدالمنعم، الأدب في التراث الصوفی: د، مکتبة غریب القاهرة، صـ ۳۰

۲۔ القصص، الآیة: ۷۷

۳۔ البقرة، الآیة: ۲۴

۴۔ رینولدنیکلسون مترجم أبو العلاء عفیفی، في التصوف الإسلامی وتاریخه: القاهرة ۱۹۵۶م، صـ ۲

۵۔ العطار، فریدالدین، تذکرة الأولیاء، المجلد الأول صـ ۷۲۔ ۷۱، قاسم غنی، تاریخ التصوف فی الإسلام، صـ ۴۹ اشارة إلی قصة یوسف علیه السلام.

۶۔ نیکلسون صـ ۲۰ تذکرة الأولیاء صـ ۳۰۵ جـ ۱

۷۔ محمد علی أبوریان، الدکتور، الحرکة الصوفیة في الإسلام: دار المعرفة الجامعیة، سویس ۱۹۹۸م، صـ ۱۱۰

۸۔ قاسم غنی، الدکتور، تاریخ التصوف فی الإسلام: ترجمة من الفارسیة إلی العربیة، د/محمد مصفی حلمی، صادق نشأت مراجعة: مکتبة النهضة المصریة القاهرة، صـ ۶۸۱۔ ۶۸۴

۹۔ المصدر السابق، صـ ۶۶۳

۱۰۔ تاریخ التصوف فی الإسلام، صـ ۶۶۰

۱۱۔ حسن الشافعی، الدکتور، فصول فی التصوف: دار الثقافة للنشر والتوزیع، القاهرة ۱۹۹۶م، صـ ۱۱۹

۱۲۔ المصدر السابق، صـ ۱۳۲

۱۳۔ تاریخ التصوف فی الإسلام، صـ ۶۸۹

۱۴۔ المصدر السابق، صـ ۹۰۶

۱۵۔ الهروی، الواعظ، علی بن حسین، رشحات عین الحیاة: صـ ۵۰ نشر دار إحیاء، بیروت.

۱۶۔ "قل إن کنتم تحبون الله فاتبعونی یحببکم الله"، سورة آل عمران، الآیة: ۳۱

۱۷۔ الخانی، عبد المجید، الحدائق الوردیة في حقائق أجلاء النقشبندیة، نشر الدروبی بسوریة، صـ۱۲۶

۱۸۔ المهدی، جوده محمد، ابو الیزید، الدکتور، أعلام الصوفیة: دار غریب، القاهرة ۱۹۹۸، صـ ۵۶۲

۱۹۔ المصدر السابق، صـ ۵۶۳، الطبقات الکبری الامام الشعرانی، ط: حلبی، القاهرة جـ2، صـ۸۶

۲۰۔ المليجی، أعلام الصوفیة، صـ ۵۹۰، المناقب الکبری، صـ ۷۱

۲۱۔ فصول فی التصوف، صـ۱۴۵

۲۲۔ فصول فی التصوف، صـ۱۴۸

۲۳۔ أعلام الصوفیة، صـ۵۹۵

۲۴۔ القمر، الآیة: ۵۵

۲۵۔ محمد ماضی، أبو العزائم، السید، خاتم الوارث المحمدین: السید محمد علاء الدین ماضی أبو العزائم، دار الکتاب الصوفی، القاهرة ۱۹۹۷ صـ۴۲۴

۲۶۔ محمد الفقی، التصوف حیاة وسلوك: بدار الکتب والوثائق القومیة تقدیم د/ عبد الحلیم محمود شیخ الجامع الأزهر ط: مجمع البحوث الإسلامیة ۱۹۷۹م صـ: ك

۲۷۔ الذاریات: ۵۶

۲۸۔ البخاری: حدیث رقم ۱

۲۹۔ مسلم بن الحجاج، صحیح مسلم: دار الإحیاء التراث العربی، بیروت، تحقیق محمد فؤاد عبد الباقی، جـ۱، صـ۳۷

۳۰۔ التصوف حیاة وسلوك، صـ: ل—م.

۳۱۔ فصول فی التصوف، صـ۱۵۹

♦♦♦